مكحـول الشامـي

التابعـي ، العابـد ، فقيـه أهـل الشـام

قام الصحابة بخلافة الرسول ﷺ في مختلف جوانب الحياة ، وخاصة في تولي الخلافة الراشدة ، وبيان الأحكام الشرعية للناس ، وكان كثير من الصحابة يحفظ كتاب الله تعالى عن ظهر قلب ، كما كان كثير منهم يحفظ شطراً عظيماً من الأحاديث الشريفة ، مع التفاوت بينهم في ذلك ، فمنهم المكثر ، ومنهم المقل ، كما تفاوت الصحابة في الفهم والفقه ومعرفة الأحكام وملكة الاجتهاد والاستنباط من الكتاب والسنة ، وحرص الصحابة على ذلك بقصد الوصول إلى المرتبة التي بينها رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد عن معاوية مرفوعاً: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

وقام كبار الصحابة وعلماؤهم بالتدبر في كتاب الله تعالى ، والبحث في سنة رسول الله ﷺ والاجتهاد فيما لم يرد به نص ، فإن اتفقوا على رأي كان إجماعاً ، والتزم به الصحابة والمسلمون عموماً حتى تقوم الساعة ، وإن اختلفوا ، وتعددت الآراء ، وتباينت الاجتهادات تقابلوا وتناظروا ، وتجادلوا لبيان وجهـة نظر كل واحد ، وعرض الدليل الذي اعتمدوا عليه ، وتحديد المناط الذي بنوا عليه الاجتهاد ، ووجه الدلالة منه ، ونتج عن ذلك ظهور مناهـج اجتهادية مستقلة لكل مجموعة من الصحابة ، ثم انتقلت هذه الاجتهادات والمناهج إلى التابعين ، وتبلورت بشكل واضح ، فأخذت طابعاً مميزاً ، ثم انحصرت مناهج الاجتهاد تقريباً

بنزعتين إحداهما بالعراق ، وتسمى مدرسة الرأي ، ويعرف أصحابها بأهل الرأي ، والثانية بالحجاز ، وسميت مدرسة الحديث ، ويعرف أصحابها بأهل الحديث .

وكان لكن مدرسة أتباع وتلاميذ بين علماء الأمصار ، وكان كل قطر ينتمي إلى هؤلاء أو أولئك ، وكانت بلاد الشام تتبع مدرسة الحديث في المدينة ، تؤيد آراءها ، وتسير على منوالها ، وتتبع منها منهاجها ، وتتقيد باجتهادات علمائها وأقوالهم .

وكان من أعلام التابعين بالشام ، وأئمة الفقه المشهورين ، الإمام العالم ، العابد الحافظ ، مكحول الشامي ، فقيه أهل الشام وإمامهم .

اسمه ونسبه :

هو أبو عبد الله مكحول بن عبد الله ، والغالب أن أباه هو أبو مسلم شهراب بن شاذان[1] ، وقيل أبو مسلم كنية مكحول ، وهو من سبي كابل ، قال الخطيب البغدادي: «كان جده من أهلَ هراة ، فتزوج ابنةً لملك من ملوك كابل ، ثم هلك عنها وهي حامل ، فانصرفت إلى أهلها ، فولدت سهراب أوسهراز، فلم يزل في أخواله بكابل حتى ولد له مكحول، فلما ترعرع سبي» ، وكان مولى لسعيد بن العاص فوهبته لامرأة من هذيل أو من قيس ، فأعتقه ، ثم أقام بدمشق ، وبقي فيها حتى توفي سنة ١١٢ هـ أو ١١٣ هـ ، ولذلك يقال له: مكحول الدمشقي ، ومكحول الشامي ، وقال المؤرخون: كان سندياً لا يفصح ، وكان في لسانه عجمة ظاهرة ، ويبدل بعض الحروف بغيره في النطق ، فيجعل الحاء هاءً ، والسين شيناً ، والجيم زايا[2] .

---

(١) وقيل: شاذل ، وقيل: ساول (وفيات الأعيان ٤/ ٣٦٨ ، أعلام الموقعين ١/ ٢٢).

(٢) وفيات الأعيان ٤/ ٣٦٨ ، الخلاصة ٣/ ٥٤ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١٠٧ ، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٥ ، المعارف ص ٤٥٢ ، مشاهير علماء الأمصار ص ١١٤ ، =

وليس غريباً أن يكون هذا الإمام الفقيه من الموالي[1] ، لأن حملة العلم والفقه والفتوى في صدر الإسلام والعهد الراشدي كانوا من العرب ، أما في العهد الأموي والتابعين فقد ظهر الموالي من غير العرب ، ممن دخل في الإسلام بصدق وإيمان ، وأخذ القرآن والحديث ، والعلم والفقه عن الصحابة، ثم قام التابعون وأكثرهم من الموالي ؛ بحمل لواء العلم ، ورفع راية الإسلام ، وممارسة التدريس والاجتهاد ، وصار أئمة الدين والفتوى في معظم البلاد الإسلامية من الموالي ، مثل عطاء في مكة ، وطاووس في اليمن ، ويحيى بن أبي كثير في اليمامة ، والحسن البصري في البصرة ، وعطاء الخراساني في خراسان ، ومكحول في دمشق ، ولا ضير في ذلك فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وقد تجاوز الإسلام القبلية والعنصرية ، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

رحلته في طلب العلم:

تفرق صحابة رسول الله ﷺ في البلدان ، ونشروا العلم في الأماكن التي استقروا فيها ، كما ظهر في كل قطر في الأقطار الإسلامية علماء وفقهاء ، وأئمة ومجتهدون ، ومحدثون ومفسرون ، وقراء ومفتون ، فشاعت الرحلة في طلب العلم ، ووجب على طالب العلم أن يسافر من قطر إلى آخر ، ومن مدينة إلى ثانية ليحصل العلم منها ، ويقصد العلماء ليأخذ عنهم ، ولأن طالب العلم منهوم لا يشبع ، وأنه يطلب العلم من المهد إلى اللحد ، وأن العلم بحر واسع لا تدرك شواطئه ، ولا يعرف

= تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ص١٦٢ ، حلية الأولياء ٥/ ١٧٧ .

(١) أعلام الموقعين ١/ ٢٢ ، المعارف ص ٤٥٢ .

غوره ، فصارت الرحلة في طلب العلم منقبة وميزة وفضيلة[1] ، وهذا ما حققه الإمام مكحول رحمه الله ، فاتجه إلى مختلف الأصقاع الإسلامية يجمع منها العلم ، ويأخذه من أفواه الصحابة وكبار التابعين ، ويتمرن على أيدي الفقهاء والمجتهدين.

ويحدثنا مكحول بذلك عن نفسه فيقول: عتقت بمصر فلم أدع بها علماً إلا حويته فيما أرى ثم أتيت العراق ثم المدينة ، فلم أدع بهما علماً إلا حويت عليه فيما أرى ، ثم أتيت الشام فغربلتها.

وأخذ العلم والأحاديث عن عدد من الصحابة ، منهم: أنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وأبو أمامة الباهلي ، وأبو هند الداري وأبو ثعلبة الخشني وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبو أيوب الأنصاري وأبو الدرداء وشداد بن أوس ، وأبو هريرة ، كما تفقه بعدد من كبار التابعين كالشعبي وعبد الرحمن بن غنم وأبي إدريس الخولاني ، وأبي سلام ممطور وخلق غيرهم ، وقال مكحول أيضاً: طفت الأرض في طلب العلم.

وقد نال مكحول من العلم حظاً وافراً ، وكان قوي الحافظة ، شديد الذكاء ، يستحضر ما تعلمه بسرعة ، يقول مكحول: ما استودعت صدري شيئاً إلا وجدته حين أريد.

ولم يسمع مكحول من كبار الصحابة ، فكان يروي عنهم دون أن يبين الواسطة بينه وبينهم ، فقال العلماء عنه: كان يدلس على الكبار كأبي بن كعب ، وعبادة بن الصامت وعائشة ، كما عرف بإرسال الأحاديث إلى

---

(١) وهذا تطبيق للحديث الشريف «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين» رواه أحمد والترمذي عن ابن عباس ، ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة (فيض القدير ٦/ ٢٤٢) وهو طرف من حديث البخاري ومسلم وأحمد (الفتح الكبير ٣/ ٢٤٧).

الرسول ﷺ دون أن يذكر السند ، أو الصحابي الذي رواها عنه[1] .

مكانته العلمية :

بلغ مكحول مرتبة عليا في العلم وفهم كتاب الله تعالى ومعرفة الأحكام الشرعية ، وصار فقيهاً بارزاً ، حتى أصبح بحق إمام أهل الشام ، وفقيه الشام بلا منازع ، يقول الزهري :

«العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، وعامر الشعبي بالكوفة ، والحسن بن أبي الحسن بالبصرة ، ومكحول بالشام» وقال أبو حاتم الرازي : «ما أعلم بالشام أفقه من مكحول» ، وقال سعيد بن عبد العزيز : «كان مكحول أفقه من الزهري» ، وقيل : لم يكن في زمانه أبصر منه بالفتيا .

وقام مكحول بالدعوة ونشر العلم والتدريس والفتيا لبيان الأحكام الشرعية ، وتجمع الناس عليه ينهلون من علمه ، ويستفيدون من فضله ، كما قابله عدد من العلماء في مذاكرة العلم ومناظرته في سبيل الوصول إلى الحق ، ومعرفة الراجح من الأدلة والأقوال ، وتخرج به عدد كبير من العلماء والفقهاء ، وأخذ عنه أهل الشام والبلاد التي رحل إليها ، ومن هؤلاء أيوب بن موسى والعلاء بن الحارث وزيد بن واقد وثور بن يزيد والحجاج بن أرطاة والإمام الأوزاعي والفقيه المجتهد سعيد بن عبد العزيز وخلق كثير ، وكان أكثر حياته وتلامذته وتدريسه في الشام ، ولذلك قال ابن عمار : «كان مكحول إمام أهل الشام» .

وكان مكحول لا يفتي حتى يقول : «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، هذا رأيي ، والرأي يخطىء ويصيب» فكان يتورع من الفتوى ،

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/١٠٨ ، تاريخ التشريع الإسلامي ، السايس والسبكي والبربري ص ١٧٢ ، تاريخ التشريع الإسلامي ، الخضري ص ١٦٢ ، الخلاصة ٣/ ٥٤ .

ويستعين بالله فيها ، ويتبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته ، ويتواضع في الاجتهاد والرأي ، وأنه يحتمل الصواب والخطأ ، وكان يرشد الناس إلى الاحتياط والبحث عمن يتعلمون منهم ، ويقول: «لا يؤخذ العلم إلا عمَّن شهد له بالطلب» ، وكان رحمه الله يهاب القضاء ، ويتحرز من الدخول فيه وتولي منصة القضاء ، ويقول: «لأن تضرب عنقي أحب إليَّ من أن ألي القضاء ، ولأن ألي القضاء أحب إليَّ من بيت المال».

ولكن مكحولاً اتهم بالقدر ، ونسب له ذلك من المصادر والمراجع ، وأنه كان من القدرية الذين ظهروا في العصر الأموي ، وكانوا يقولون بالقدر أي ينفون القدر عن الله تعالى ، وأن الإنسان مطلق الحرية في أقواله وأفعاله ، وهذه التسمية جاءتهم من خصومهم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم ، لينطبق عليهم الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[1] ، وكان القول بالقدر أحد أسباب الطعن بالشخص والجرح في عدالته للتطرف في تأويل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ومخالفته للعقيدة الصحيحة التي بينها القرآن والسنة ، وقام العلماء بتوضيحها للمسلمين عامة ، وللرد على قائليها خاصة ، وكشف منابعها الخارجية ثالثاً ، كما قام الحكام بملاحقة أصحابها.

وكان مكحول ينكر هذا الاتهام ، ويبرأ من القول بالقدر ، ويعتبر القول به سحراً ، فقد سأله بعض الأمراء عن القدر؟ فقال: أساهر أنا ، يريد ساحراً ، وأكد ذلك طلابه ومعاصروه ، فقال سعيد بن عبد العزيز: «وكان بريئاً من القدر» ، وقال الأوزاعي: «ما نسب إليه من التكلم في القدر باطل» ، وقال يحيى بن معين: «كان قدرياً ، ثم رجع».

---

(١) فيض القدير ٤/ ٥٣٤.

وباختصار فقد وثّق أكثر العلماء برواية مكحول وعلمه وحديثه ، مع التنبيه إلى تدليسه وروايته بالإرسال ، وروى له الإمام مسلم وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم[1] .

عبادتــه وزهــده :

كان السلف الصالح يقرنون القول بالعمل ، ويطبقون علمهم على أنفسهم قبل أن يعلموه للناس ، ويخشون الله تعالى ، ويستعدون للقائه ومحاسبته وسؤاله ، ومن هنا عكفوا على الطاعة والعبادة ، ومهروا بأصناف التقريب لربهم ، فقاموا الليل وصاموا النهار ، كما حرصوا على الجهاد والمشاركة فيه ، مع دوام الذكر والتسبيح والدعاء والاستغفار .

ويعتبر مكحول مثالاً فذاً للسلف الصالح في هذه النواحي ، فقد كان كثير العبادة ، يحرص عليها في جميع الأوقات ، ويحرص على السنن كما يحرص على الفرائض ، ويتقرب إلى الله تعالى بالنوافل طمعاً في محبته ورضاه ، ولذلك سماه الحافظ أبو نعيم: «الصائم المهزول» من كثرة صيامه ، وكان يصوم يوم الإثنين والخميس ، ويقول: «ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين ، وبعث يوم الإثنين ، وتوفي يوم الإثنين ، وترفع أعمال بني آدم يوم الإثنين والخميس» ، وكان إذا توضأ لا يمسح وجهه بالمنديل ، بل يمسحه بطرف ثوبه ويقول: «الوضوء بركة ، وأنا أحب ألاَّ تعدو ثوبي» ، وكان رحمه الله تعالى يرغب بالجهاد ، ويأمر به

---

(١) وكان مكحول معلماً للأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن وزيد ابني يزيد بن جابر ، (طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٥ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١٠٨ ، الخلاصة ٣/ ٥٤ ، ميزان الاعتدال ٤/ ١٧٨ ، وفيات الأعيان ٤/ ٣٦٨ ، المعارف ص ٤٥٣ ، تاريخ التشريع الإسلامي ، السايس ص ١٩٧ ، تاريخ التشريع الإسلامي ، الخضري ص ١٦٢ ، يحيى بن معين وكتابه التاريخ ٢/ ٥٨٤ ، حلية الأولياء ٥/ ١٧٨ .

الناس ، ولو ضعف حالهم ، فيطلب منهم المرابطة ونية الجهاد ، فقد عاد حكيم بن حزام بن حكيم ، وهو مريض عاجز ، فقال له: «أتراك مرابطاً هذا العام؟ فأجابه: كيف تسألني عن هذا ، وأنا على ذي الحال؟ فقال له: وما عليك أن تنوي ذاك ، فإن شفاك الله مضيت لوجهك ، وإن حال بينك وبينه أجل كتب لك نيتك» ، وهذا تطبيق للحديث الصحيح الذي رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة مرفوعاً: «من مات ولم يغزُ ولم يُحَدِّث نفسه بغزوٍ مات على شعبة من نفاق»[1] ، وكان مكحول يكثر من التسبيح والدعاء والاستغفار ، ويذكر به ، ويدعو الناس إليه ، فيقول: «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، غفرت له ذنوبه ، ولو كان فاراً من الزحف ، ويقول: «أربع من كن فيه كن له: الشكر والإيمان والدعاء والاستغفار» ، ويقول: «إذا كان في أمة خمسة عشر رجلاً يستغفرون الله كل يوم خمساً وعشرين مرة لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامة» ، وكان يردد حديث رسول الله ﷺ: «من كان سهلاً هيناً ، ليّناً ، حرمه الله على النار»[2].

شمائله ومواعظه:

كان مكحول على جانب عظيم من الخلق الرفيع ، والمعاملة الحسنة ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ، وسعة الصدر مع السفيه ، والتواضع لغيره ، ودعوة الناس إليه ، ولا يسع هذا المجال لتعداد مواقفه وشمائله ومواعظه ، وإنما نذكر جانباً منها.

يقول سعيد بن عبد العزيز: كنت جالساً عند مكحول فاستطال عليه رجل ، فقال مكحول: ذل من لا سفيه له» ولم يجاوب هذا السفيه ، ولم

---

(١) الفتح الكبير ٣/ ٢٤٠.

(٢) رواه الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو صحيح (فيض القدير ٦/ ٢٠٧ ، الفتح الكبير ٣/ ٢٢٩).

ينزل إلى درجته ، وأخذه بالحلم وسعة الصدر ، لكنه كان يحذر من معاشرة السفهاء والمنافقين ويقول: «لا تعاهدوا السفيه ولا المنافق ، فما نقضوا من عهد الله أكبر من عهدكم» بينما كان يعتز بالعلم والعلماء ويعرف مكانتهم ، ولا يلين أو يذل لحاكم ، فمرة أقبل يزيد بن عبد الملك بن مروان إلى مكحول وأصحابه ، فلما رأينه هممنا بالتوسعة له ، فقال مكحول: مكانكم ، دعوه يجلس حيث أدرك ، يتعلم التواضع» ، ويقول: «لا يأتي على الناس ما يوعدون به حتى يكون عالمهم فيهم أنتن من جيفة الحمار».

ومن مواعظه الكثيرة ، وحكمه البليغة ، قوله: «أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ ، وكان يقال: الجائع الظمآن أفهم للموعظة ، وقلبه إلى الرقة أسرع ، ويقول أيضاً: كثرة الطعام تدفع كثيراً من الخير» ويقول مكحول: «المؤمنون هينون لينون ، مثل الجمل الأنف ، إن قدته انقاد ، وإن أنخته على صخرة استناخ» ويقول مكحول: «إن كان الفضل في الجماعة ، فإن السلامة في العزلة» ويقول: «أرق الناس قلوباً أقلهم ذنوباً» ، ويقول مكحول: «من أحب رجلاً صالحاً فإنما أحب الله ، ومن ذهب إلى علم يتعلمه فهو في طريق الجنة حتى يرجع»[1].

وبعد: فهذه صورة للعالم المسلم ، العامل بعلمه ، العابد الواعظ ، الذي يعتبر منارة للأمة ، تهتدي بضيائه ، وتستفيد من علمه ، وتفتخر بأمثاله ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ، ورحمه برحمته ، ونفعنا بأقواله ومواعظه ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) انظر تفصيل شمائل مكحول ومواعظه بتوسع في (حلية الأولياء ٥/١٧٨ وما بعدها ، الطبقات الكبرى ، للشعراني ١/٤٥ ، مشاهير علماء الأمصار ص ١١٢).